

الفكر العربي

عرض وتعليق : د. عبد السلام المراس

تأليف : د. زكي نجيب محمود

التجديد سمة صحة وسلامة طالما لازم تطورات الامة ، ولا ينمو النزوع الى التجديد الا في جو تسوده الحرية ليتاح التعبير عن الراى ولا يتها هذا الجو الا اذا كانت شؤون الامة موكولة اليها لتشره ، على تسيرها بهذا الاسلوب او بذاك .

واذا كانت امة في حاجة الى تجديد تفكيرها لتبدا عند ذاك بتجديد اسلوب حياتها على جميع المستويات نهى الامة العربية المسلمة لانها ذات ثروة حضارية غنية بالفكر ، وذات رسالة خالدة اسست للانسان الكثير من الخير ، ولا تزال هذه الرسالة مستعدة للعطاء من جديد رغم الانجازات العظيمة التي تمت في ميدان العلوم والتقنيات والتحويلات الخطيرة التي طرأت على الشعوب والامم ، وغيرت كثيرا من مفاهيمها عن الكون والحياة والانسان ، وتكونت فلسفات كثيرة وحدثت ثورات جبارة كان لبعضها اكبر التأثير على سير الانسانية ، ومع ذلك فالرسالة الاسلامية صامدة لا تقبل ان تكون في موقف الدفاع السلبي وانما هي تتقدم دائما متحدية خلال تاريخنا الحديث مما يفرع كثيرا من المراقبين الراصدين لسيرها كما يتبين ذلك في كثير من الدراسات والابحاث والتقارير عنها منذ وعى اعداؤها مدى ما تملكه من قوى فكرية وبشرية ومادية !! .

ولعل من ابسط ما يجب ان يتحقق في الداعي الى التجديد :

أولا : ايمان بدين الامة وعقيدها .

ثانيا : معرفة واسعة بفكرها وماضيها وتاريخها .

ثالثا : استعداد فكري يؤهله للمقارنة والاستشراف والاستنباط والاستنتاج والابداع بالاضافة الى وعيه العميق بعصره وعصره .

فالتجديد ليس نزوات طائش ولا فقايع هوى ولا فرقتات مغامر ولا عمليات ترقيم ام افكارا .

ومن مظاهر حيوية هذه الامة انها من حين لآخر تنبت من صميم تربتها رجالا انذاذا في مجال الفكرة والسلام : دعاة تجديد او قادة مقاومة حتى في عصر الجفاف والعقم والتدهور ! وفي العصر الحاضر يبرز كثير من دعاة التجديد ولكل منهم ظروفه ومناخه وثقافته ومزاجه مما كان له اثر في تنويع مدارس التجديد ، ومذاهبه الا ان احدا منهم لم يخرج عن الفكرة الاصيله وهى وجوب الانطلاق من الاسلام كمنبع لحضارتنا وتطورنا وما نأمله من تقدم ومعاصرة بما يناسب ماضيها العظيم .

تبريرية بدافع عقدة نقص او محاولات جريئة للفت الانتظار وتخطى المراحل نحو الزعامة الفكرية او الادبية او السياسية .

ان الكثير مما وقع في هذا المجال خلال هذا القرن كان من تلك الانواع ، وبخاصة من اولئك المفكرين الذين بعثوا الى الخارج ليعودوا الى بلادهم معجبين ببلاد الغرب وعازمين على التجديد والدعوة الى اللحاق بالحضارة على النمط الاوربي وقد ادرك بعضهم ، بعد فوات الاوان انه كان من الدعاة لفكر مستتب مستغنيا من بساطة طلابه ومريديه وتحمسهم لفكرته التي لم يكن هو مقتنعا بها . ولئن صحا هذا البعض من الغفوة الكابوسية فان البعض الآخر لا يزال في المتاهات المحكمة يتخبط في توتراته ! ! ومهما يكن من شيء فان ظاهرة القلق لمحاولة المراجعة والتحصيص تطفو احيانا في ظروف تمتاز بالقلب والرجة والمفاجأة وتغيير الاوضاع تغييرا ماديا ومعنويا تنعكس في حياة بعض «المفكرين» ومن ثم على تفكيرهم . وهناك نماذج من المفكرين حاولوا استدراك ما بدر منهم من تفكير ، واصلوا بكل صراحة وصدق ووضوح انهم كانوا يفكرون بفكر اجنبي عند ما تصدوا لعلاج مشاكل امتهم وادركوا انهم انتجوا افكارا متناقضة ورغم ذلك فهم لا يزالون مصرين على التفكير في مشاكل امتهم وتقدير الحلول لتخلفها ولهم الحق في ذلك بل انه واجبهم . ومن هؤلاء المفكر المصري الدكتور زكي نجيب محمود الاستاذ الجامعي الكبير وصاحب المؤلفات العديدة ، ومن هذه المؤلفات كتابه : « تجديد الفكر العربي » وفي هذا الكتاب يستعرض الكاتب ما كان يعانيه من اضطراب شديد حيث تسلطت عليه حيرة تنازعت في منتصف طريقه الفكرية الذي يسير فيه منذ عدة سنوات ولكن عقله الفلسفي لم يستطع ان يجد جوابا لسؤال ملح وهو كيف يمكن للعالم العربي ان يجمع بين التراث والمعاصرة ؟ وقد تطور موقفه من هذا السؤال منذ تعرض له واعترضه من امد بعيد .

ولكنه كان كما قال « من المتعجلين الذين يسارعون بجواب قبل ان يفحصوه ويمحصوه ليزيلوا ما يتناقض من عناصر » وانطلاقا من هذه العجلة والتعجل ارتقى في احضان تعصب شديد طالما اخفى عنه الحقائق مما لوقعه في وهم صور له انه وقع على الحقيقة واكتشف الجواب يقول : « فبدات بتعصب شديد لاجابة تقول :

انه لا امل في حياة فكرية معاصرة الا اذا بترنا التراث بترا وعشنا مع من يعيشون في عصرنا علما وحضارة ووجهة نظر الى الانسان والعالم ، بل اني تمنيت عنفذا ان ناكل كما ياكلون ونجد كما يجدون ونلعب كما يلعبون ونكتب من اليسار الى اليمين كما يكتبون على ظن مني انذاك ان الحضارة وحدة لا تتجزأ فاما ان نقبلها من اصحابها - واصحابها اليوم هم ابناء اوربا وامريكا بلا نزاع - واما ان نرفضها ، وليس في الامر خيار بحيث ننفي جانبها كما دعا الداعون الى اعتدال » وينصح عن الدافع الخفي لهذا التعصب وهو :

المامة بالثقافة الغربية وجهله جهلا يكاد يكون تايها بالتراث العربي . ويقول السيد الدكتور « الناس اعداء لما جهلوا » .

ثم بعد ذلك تغير موقفه ولكن هذا التغيير لم يكن تغيرا جذريا يتسم بسمة الريادة الواعية ولم يكن نتيجة لمراجعة مبدا المنطلق ولكن الظروف الخارجية تغيرت فطرات على المناخ القومي والسياسي مظاهر جديدة غيرت الثقافة او حورتها وقد اصاب ذلك التغيير فلسفة الكاتب الكبير .

وهكذا اندفع في تطرف وتعصب لفكرة جديدة مناقضة للتي آمن بها سابقا ايمان تعصب ، وقد باح لنا بذات نفسه بكل صدق وغفوية وامانة عند ما قال بصريح العبارة (13) .

« ثم تغيرت وقفتي مع تطور الحركة القومية فما دام عدونا الالاد هو نفسه صاحب الحضارة التي توصف بانها معاصرة فلا مناص من نبذه ونبذها معا . » واندفع هكذا دون تحميص او تفكير يعتمد منهجية علمية ، يدعو مع الداعين الى ثقافة عربية خالصة ، ولكنه كان ازاء هذه النظرة المتعاطف معها « بلا حول » لانه لم يكن هنا ايضا على المام بالتراث . يقول :

« فلا انا قد اتيجت لى ايام الدرس فرصة كافية للالام بقسط موفور من تلك الثقافة العربية الخالصة - اللهم الا النزر اليسير الذي كان يتلقاه التلميذ في المدارس المدنية - ولا انا استطيع ان اجد الفراغ لاتوفر على الدرس من جديد » . ولكنه اخيرا اتيج له فراغ ومكتبة عربية وكان ذلك السؤال لا يزال يلاحق فكره ويلج عليه الحاحا قويا وحينذاك سهل عليه ان يحب بان الحل هو في وجود تركيبة عضوية يمتزج

يفحص كل المقترحات المطروحة فحفا دقيقا في إطار
من شروط معينة يقتضيها الموضوع ؟

ان التسرع في العثور على المفاتيح تحت ضغط
بعض الدوافع يقينا انها ليست نابعة من قلق فلسفي
— لا يجدى في حل المشكل ، بل ربما عقده بالنسبة
للكاتب وبالنسبة للقارئ ، أما الكاتب فقد يسترسل
في هذا « الخط الذي يركن الى الاسهل الايسر » معتقدا
انه الخط السليم فيبنى على ذلك ويستنتج وقيس
وربما كون نظرية شاملة ذات بناء متكامل في حين انها
مؤسسة على رمال معرضة لعواصف الحقيقة
وأما التجربة . وأما القارئ وبخاصة ذلك النموذج
الشائع عندنا فيتلقف الفكرة ظانا انه وقع على الحل
فيروج ويفدو ويشيع الخطأ ويدعو « للجهل » وقد
يكتب هو ايضا في الموضوع مرقعا ذلك ببعض اللقيط
من الافكار السائدة والنسقيط من الثقافات الرخيصة !!
(وهى السلعة الرائجة الآن) .

لعلنا نتفق ان التصدى لعلاج مشاكل مجتمع ما
يخضع لشروط موضوعية بدونها يصبح العلاج ضربا
من تعقيد المرض واستفحاله . وربما القضاء على
المريض بأسهل وسيلة وأقرب طريق . وقد توفرت
شروط مهمة في الدكتور نجيب محمود فهو رجل عميق
الفكر واسع الاطلاع على الثقافة الغربية مخلص
وشجاع وقد لمست فيه هذه الصفات من خلال قراعتي
لكتابه ولم يكذب الخبر الخبر والفكر الرؤية والاتصال
عند ما سعدت بلقائه وحاورته في جلسة طويلة وكشفت
له عن رأبي في كتابه المذكور فكان مثال العالم المتواضع
المنصف ، ولكن رغم ذلك فهناك شرط اساسي يعوز
كاتبنا الكبير وهو الالام بتراث هذا المجتمع وثقافته
الاصيلة وقد كفانا هو نفسه عناء استنتاج ذلك في
المقدمة لهذا الكتاب في اعتراف صريح مخلص واستسمح
القارئ الكريم بأن انتقل اليه معظم اعتراف الدكتور
لما فيه من فائدة جلية وتنبيه خطير بل وتعرية كاشفة
لصنف من المثقفين الذين هم دون الدكتور نجيب علما
ومعرفة وفكرا بل واخلاصا وموضوعية انبروا بكل
جراة للخوض في مشاكل امتهم وهم يجهلون هذه الامة
وادلوا بأراء في ثقافتها وهم ابعد الناس عن معرفة
ابسط عناصرها ومبادئها ولذلك تراهم يتخبطون في
العلاج نظرا لاضطراب في تصوراتهم ومنطلقاتهم وان
كانوا لم يدخروا وسعا في الاعتراف من قاموس الثلب

فيها تراننا مع عناصر العصر الراهن الذي نعيش فيه
ولكن « الكيف » هو الذي حيره وقد حاول مرارا ان
يتصور هذا الكيف وتقافه الامل والياس وكثيرا ما
تخيل له انه وقع على الحل ولكن سرعان ما يفتام
ويختفى وهو ويعترف بأن المستمع الى محاضراته
ونحواته .. والقارئ لمقاتله يجد آراءه متعارضة
متناقضة لا يستق بعضها مع بعض .

وهو في كل ذلك كان صادقا مع نفسه ومع
الناس وكاد ييأس عبر رحلته الفلسفية الى درجة
انه اتهم سؤاله الذي ربما كان بطبيعته لا يحتمل الجواب.
وطرح مثل هذا السؤال لا ينتهي بصاحبه الا الى
الفشل والحيرة كما لو حاولت الاجابة عن سؤال :
كيف السبيل الى تربيعة الدائرة والى تلييث المربع ؟

ولكن الكاتب الكبير غالب يأسه واعتصم بالامل
لانه تحمل مسؤولية اشارة الطريق لقومه داخل الجامعة
وخارجها واستطاع أخيرا أن ينتصر على وساوسه اذ
فجأه وجود الحل الذي اهتدى به ولكن الحل لم يكن
ايضا نتيجة اجتهاد فكري واجهاد فلسفي اذ لم يكن
الحل نابعا من تفكير الرجل وانما ورد عليه من الخارج
حيث عثر عليه في عبارة تراها نقلنا عن « هوبرت ريد »
وملخص هذه العبارة أن قيمة التراث هو في كونه
مجموعة من وسائل تقنية يمكن أخذها عن السلف
لاستخدامها اليوم بجانب ما نستخدمه من وسائل
حديثة واعتمادا على ذلك يبتكر الدكتور هذا الحل :
ان نأخذ من الاقدمين ما نستطيع تطبيقه عمليا ونرفض
كل طريقة غير ملائمة اى ما دامت الثقافة طرائق عيش
فلنأخذ من التراث ما ينفع في حياتنا ولنترك ما لا ينفع
نفعنا عمليا تطبيقيا

وقبل ان اثير بعض الاسئلة حول مبدأ عثوره على
هذا المفتاح أقول : ان من يقرأ كلام الفيلسوف الكبير
يجد أن الرجل يحاور مستوى فكريا بسيطا يناقش في
بعض الافكار التي تعتبر من البدهة بمكان وهو يتوتر
ويسترسل ويأخذ حذره . على كل فاني اود هنا أن اثير
بعض الاسئلة التي يثيرها كل من يقرأ كلام الدكتور
وله المام بالثقافة . ما هذا التراث ؟ وهل تراث المسجد
هو تراث الكنيسة ؟ ثم ما هى طبيعة المشاكل التي
نتخطب فيها ؟ وهل المفتاح الذي وجده عند « ريد » قادر
على حل هذه المشاكل ؟ اليس من واجب الفيلسوف
ان يكون حذرا وان يشك قبل ان يقبل او يرفض ؟ وان

للنيل من أمتهم والتنقيص من قيمتها مع الإشادة
بحضارة الغرب وفضل الغرب وعظمة الغرب !!!

يقول الدكتور نجيب محمود معترفا بقصور
عرفته بالتراث « ولم تكن قد أتيت لكاتب هذه
الصفحات في معظم أعوامه الماضية فرصة طويلة
الآمد ، تمكنه من مطالعة صحائف تراثنا العربي على
يقل ، فهو واحد من الوف المثقفين العرب
الذين فتحت عيونهم على فكر أوربي قديم أو جديد حتى
سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر
الإنساني الذي لا فكر سواه لأن عيونهم لم تفتح على
غيره لتراه ولبثت هذه الحال مع كاتب هذه الصفحات
عواما بعد أعوام : الفكر الأوربي دراسته وهو طالب
الفكر الأوربي تدريسه وهو استاذ والفكر الأوربي
سلاته كلما أراد التسلية في أوقات الفراغ وكانت
سماء الاعلام والمذاهب في التراث العربي لا تجيئه
لا اصداء مفككة متناثرة كالإشباح الفاضة » .

ثم يقول : « استيقظ صاحبنا - كاتب هذه
الصفحات بعد أن فات أوانه أو أوشك فاذا هو يحس
حيرة تؤرقه فطفق في بضعة الأعوام الأخيرة التي
لا تريد على السبعة أو الثمانية بزرد تراث آبائه
يراد العجلان كأنه سائح مر بمدينة باريس وليس
من يديه إلا يومان ولا بد له خلالهما أن يريح ضميره
زيارة للوفر فراح يعدو من غرفة إلى غرفة يلقي
للنظرات العجلى هنا وهناك ليكمل له شيء من الزاد
ل الرحيل هكذا اخذ صاحبنا - وما يزال يعب
صحائف التراث عبا مريعا والسؤال ملء سمعه
صره : كيف السبيل إلى ثقافة موحدة منسقة يعيشها
قف حتى في عصرنا هذا بحيث يندمج فيها المنقول
لاصيل في نظرة واحدة » .

اذن فصاحبنا الدكتور زكي كان منغمسا في جو
ثقافة الغربية طالبا ومدرسا ومتسليا لم تصله من
ثقافة العربية إلا اصداء مفككة متناثرة كالإشباح
الفاضة وعند ما استيقظ للتعرف على التراث كان
من ذلك قد فات أو أوشك .

المأمة بالتراث بعد ذلك كان كالمم سائح مر
بينة باريز وليس له إلا يومان وكان عليه أن يلم
اث للوفر فراح يعدو من غرفة إلى غرفة مكتفيا
بأنه النظرات ولكن النظرات العجلى .

وبناء على ذلك أحب أن أضع سؤالا يفرض
نفسه بنفسه هو :

هل العدو خلال يومين من غرفة إلى غرفة داخل
متحف «اللوهر» العظيم والقاء النظرات العجلى على
تحفه وروائعه تؤهل المهرول الجديد لمعرفة دقائق
تلك اللوحات الروائع وتقديم فكرة سليمة عنها جميعا
أو على الأقل عن واحدة منها ثم انتقاد فن اصحابها
وأخيرا اقتراح أفكار تجديدية في إدارة ذلك الفن هذا
مع أن وجه الشبه بين اللوفر والحضارة الإسلامية
بعيد كل البعد عن الحقيقة ، فالحضارة العربية
الإسلامية عالم عظيم مترامى الأفاق سحيق الأغوار
متشعب المسالك ضارب في أعماق التاريخ له من الانتاج
الفكري والحضاري ما يزرى بحضارات عظمى به
متحفا كاللوفر .

ان الدكتور الفاضل نراه يعترف بكل شجاعة
وبراءة عن مكانته في معرفة التراث وقد كان أكثر
صراحة عند ما حاورته في هذا الأمر أيام لقاءنا في
فرصة ثقافية وقد ازددت إعجابا بالرجل واتساع عقله
وشدة غيرة على أمته وحرصه على الاسهام في تقويمها
وأخراجها من دائرة التخلف ولكن هذا الاخلاص وحده
لا يسوغ لاي واحد أن يجدد هذا الفكر والا لاستباح
كل الناس لانفسهم أن يصبحوا دعاة تجديد كما وقع
بالفعل بالنسبة لبعض من يجهل ثقافة أمته وحضارتها
ومع ذلك هاجم هذه الثقافة وأزرى بهذه الحضارة
وأعلن بصوت جهورى الا تقدم لنا الا بتبنى تجارب
الآخرين وركوب طريقهم واختصار تصوراتهم وليس
غريبا أن يجد هذا الصنف وسطا مناسبا ومناسبا
خصبا للتجارب مع أفكاره لتشابه الشروط وتوافق
المشارب الثقافية !!!

وقد واجهت استاذنا الجليل ببعض ما اعلق به
على كتابه هذا ويانصاف العالم وتواضع المثقف
وافقنى على ملاحظتى . ومما قلت له هناك : ان
اكتشافه لكتاب « العقد » لابن عبد ربه واعجابه بما
ورد فيه عن العلم وقوله « لقد اشتملت مجموعة
الاقوال التى أوردها بن عبد ربه عن العلم والعلماء
- على قلة صفحاتها - خطوطا رئيسية تصلح أن
تكون دستورا للحياة العلمية كلها منهجا ومعيارا
(339 - 340) - هو أمر ليس اكتشافا للكتاب بقدر
ما هو اكتشاف نفسه بالنسبة لما لا يعرفه من التراث

ثم ان ذلك يبين أولا ان اطلاعه على هذا الكتاب جاء متأخرا جدا ذلك أنه كان معروفا ومتداولاً بين المثقفين قبل ان توجد الطباعة وقد طبع الكتاب في مصر منذ مدة كما درس هو وصاحبه من قبل عدة بحاث بمصر ولبنان والمغرب وغيرها وهذه القطعة يعرفها تلاميذ المدارس لانها من مختارات الكتب المدرسية ، ثم ان ما غاب على سيادة الدكتور في هذا المجال كثير وكثير جدا مما يصلح أن يكون دستورا للحياة العلمية كلها منهاجاً ومعياراً .

ومهما يكن من شيء ، فلو أن الدكتور اطلع على العلم الاسلامي والتراث العربي الذي أعجب به من مؤلفات قليلة أتيج له ان يطلع عليها لتغير كثير من نظرائه واعتدلت بعض أحكامه القاسية .

ان كتابات الدكتور في تجديد الفكر العربي ليس سوى لقطات وانطباعات سريعة وربما تكون هناك اندفاعات ناتجة عن انفعالات حادة المس من خلالها ان ثمة عراقا عنيفا وخصومات شديدة تكمن وراء تلك الافكار التي اعترف هو نفسه انها تتناقض ، ومما يكشف عن التسرع واصدار الاحكام بناء على نظرة مسبقة ما وقع فيه الدكتور من اخطاء في فهم بعض الاساليب العربية ، مما جعله يصوب الخطأ ويخطئ الصواب وقد اثار ذلك الكاتب الكبير الاستاذ محمود شاكر في تعليقه على بعض مواقف الدكتور زكى وانكاره (مجلة الكاتب ص 13 - 36 السنة الخامسة عشرة العدد 170 مايو 1975) :

« وبعد : فان العرب عرفوا منذ مطلع هذا القرن بالسفه المالى اذ تصرفوا في ثرواتهم تصرف الطائشين فبددوها في التفاهات ووجوه الانفاق الاستهلاكية الكمالية بل والاسراف في الترف والتبذير وهم كذلك ايضا في ميدان الفكر ، فهذه الطاقة الهائلة التي منحهم الله اياها سخروها - الا اقلهم - في ابداع المذاهب لتمزيق هذه الامة وجعلها طرائق قنذا ودفعها الى التطاحن والتقاتل والصراع الداخلى دفعا عن شعارات فارغة المحتوى وانتصارا لنزعات منحرفة خطيرة وان لبست الملع ملابس العصر وصبغت وجهها بأحدث صبغات القوم » .

ولعل بعض سفهاء المال قد تنبهوا اخيرا بعض التنبه الى ما ارتكب اسلافهم في حق امتهم من تبذير لثروة المسلمين فمتى ينتبه بعض سفهاء الفكر الى ما ضيع « اسلافهم » وضيعوا هم على امتهم من امكانيات عظيمة للتقدم والتخلص من هذا التخلف المخيف ، فيعملوا على تجديد هذه الامة انطلاقا من روحها وتراثها الحقيقي وحضارتها الاصلية ؟ ومن المؤسف ان كثيرا من كتابنا ومفكرينا لا يصحون من غفوتهم ولا يتنبهون الى ما ضيعوا على امتهم الا بعد فوات الاوان وبعد ان يكون عطاؤهم الفكرى والحركى قد تبدد اكثره في مجالات هدامة او سلبية او مضطربة كما يعترفون هم بذلك عند ما يتخلصون من المتاهة والتيه .

فاس - د . عبد السلام الهراس